المحاضرة التاسعة

﴿كتاب جاهليون (قس بن ساعدة، عمرو بن يكرب الزبيدي﴾

قس بن ساعدة الإيادي: (000 - نحو 23 ق هـ = 000 - نحو 600 م)

أول من قال (كذا) من العرب كما في حديث رواه اليعمري، وأول من خطب متكيا على عصا، وأول من كتب من فلان إلى فلان، وأول من آمن بالبعث من غير علم، وأول من قال:" أما بعد". وسيأتي، وأول من قال: "البينة على المدعي واليمين على من أنكر".

قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد: أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم، في الجاهلية. كان أسقف نجران، ويقال: إنه أول عربي خطب متوكئا على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه " أما بعد ". وكان يفد على قيصر الروم، زائرا، فيكرمه ويعظمه. وهو معدود في المعمرين، طالت حياته وأدركه النبي ﷺ قبل النّبوّة، ورآه في عكاظ، وسئل عنه بعد ذلك، فقال: يحشر أمة وحده.

كان موقنا بآيات الله، وكان حكم العرب. وذكر رسول الله ﷺ أنه رآه يخطب بعكاظ على جمل أحمر. واقتصّ أبو بكر قصته، وأنشد شعره. قال: قدم وفد أياد على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما فعل قس بن ساعدة؟ قالوا: هلك يا رسول الله، فقال كأني أنظر إليه بسوق عكاظ يخطب الناس على جمل أحمر ويقول:

أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن فى السماء لخبرا، وان فى الارض لعبرا، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسما لا أثم فيه، ان لله دينا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم علية، إنكم لتأتون من الامر منكرا ثم أنشأ.

في الـــــــذاهبين الأوّلـــــــين ... مـــــن القـــــرون لنـــــا بصـــــائر

لـــــمّا رأيـــــت مـــــواردا للمـــــوت ... لـــــــيس لهـــــــا مصـــــــادر

ورأيـــــت قـــــومي نحوهـــــا ... يمضيـــــ الأكـــــابر والاصـــــاغر

لا يرجـــــــع الـــــــماضي الىّ ولا مـــــــن البـــــــاقين غـــــــابر

أيقنـــــــــت أني لا محالـــــــــة حيـــــث صـــــار القـــــوم صـــــائر

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يعرض هذا الكلام يوم القيامة على قس بن ساعدة فإن كان قاله لله فهو من أهل الجنة).

أسلوبه: مطبوع مسجوع، شديد الروعة، متخير اللفظ، قصير الفواصل، يعمد فيه إلى ضرب الأمثال، واستنتاج العبر من مصارع الطغاة وظواهر الكون، وله شعر يجمع إلى الجزالة رقة التعبير وقوة التأثير.

٢ ــ عمرو بن معد يكرب الزبيدي

٥٣٥ ـ ٦٤٣ م

٨٩ ق هـ ـ ٢١ هـ

حياته: عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس اليمن وخطيب العرب وبطل القادسية، ينتهي نسبه إلى قحطان ويكنى أباثور. لقي النبي ﷺ لَدَى منصرفه من تَبُوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه، ولكن قلبا شاب في الجاهلية الجهلاء، ورتع في الدماء والأشلاء، وآستهتر في اللهو والصهباء، لا يقبل على الدين بإخلاص وصدق، فآرتد بعد إسلامه. ثم رجع إلى الحق وجاهد في سبيل الله حق جهاده. ثم شهد القادسية وعمره على ما قيل عشر سنين ومائة، فأبلى فيها بلاء حسناً. ثم توفي في أواخر خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٣ م.

صفته ومنزلته: كان قوياً بديناً أكولاً، وكان سيداً مطاعاً وبطلاً شجاعاً وخطيباً شاعراً؛ يعد في الطبقة الثانية من الشعراء، وفي الأولى من الخطباء، ويغلب في شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة. يقال إن النعمان بن المنذر أرسله فيمن أرسل من سَراة العرب إلى أنُوشِرْوان بالمدائن ليكون كلامهم بين يديه مصداقاً لدعواه في العرب وآفتخاره بهم وتفضيله إياهم فألقى هذه الخطبة:

إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد، وملاك النُّجعة الارتياد، وعفو الرأي خير من آستكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من آعتساف الحيرة. فآجتبذ طاعتنا بلفظك؛ وآكتظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يَلِن لك قيادُنا. فإنا أناس لم يُوقِّصْ صَفَاتَنَا قِراعْ مناقير من أراد لنا قضماً، ولكن منعنا جماناً من كل من رام لنا هضماً.

---

٢ ـ انظر ترجمته في: جمهرة النسب، ترتيب كاسكال: ١٧٨/٢، وطبقات ابن سعد: ٣٨٣/٥، والأغاني: ٢٠٨/١٥ ـ ٢٤٤، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥٦، وسمط اللآلي: ص ٦٤، والإصابة:

ومن شعره قوله في أُبيٍّ الْمُرادي وقد توعده:

أعـاذلَ شِكتي بـدني ورمـحي ... وكـلُّ مُـقَلّصٍ سلس القيـاد
أعـاذل إنـمـا أفني شبـابي ... وقـرْح عـاتقي ثقـل النـجـاد
تـمـنـانـي لـيـلقـاني أُبـيٌّ ... ودِدْت وأيـنـمـا مـنـي ودادي
ولـو لاقيتـني ومـعي سـلاحي ... تكشف شحم قلبـك عن سـواد
أريـد حياتـه ويـريـد قتلي! ... عَـذيـرَكَ من خليلك من مُـراد!

وقوله:

لـيس الـجـمـال بـمئـزر ... فـآعـلم وإن ردَّبـت بُـردا
إن الـجـمـال مـعـادن ... ومـنـاقـب أورثـن مـجـدا
أعـددت لـلحـدثـان سـا ... بـغَـة وَعَـدَّاءَ عَـلَنْـدى!
نـهْـداً وذا شُـطَبٍ يَـقُـدّ ... الـبـيض والأبـدان قـدا
كـم مـن أخ لـي صـالـح ... بـوَّأتـه بـيـديَّ لـحـدا

المحاضرة العاشرة

10 * ﴿العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي﴾

العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر الجاهلي، والأدب الأجنبي (الفارسي والروماني).

أولا: أثر الإسلام في الشعر:

تَمَثَّل أول أثر للإسلام في الشعر في تلك المعاني الإسلامية الجليلة التي حملها الشعر الإسلامي، فصارت قيمًا راسخة في العقيدة والأدب الإسلامي .كما كان للإسلام أثره في توجيه أهداف الشعر، إذ لم يَعُد هدف الشاعر المسلم التفوق والتميز، أو دعم القيم القبلية، أو التكسُّب وإراقة ماء الوجه. بل صار هدفه، الدِّفاع عن العقيدة والقرآن والنبي ﷺ.

الإسلام والشعر:

يرى بعض النقاد ان الاهتمام بالشعر قد قل بعد الإسلام، وان الشعراء انصرفوا عنه، فضعف مستواه، وارجعوا ذلك غلى الأسباب التالية:

1/ إن الالمسلمين شغلوا بالقرآن الذي أدهشهم أسلوبه، وبهرهم إعجازه، مما صغّر الشعر في عيونهم.

2/ محاربة الإسلام لنوازع الشر التي تثير النفوس، وتبعث الحمية، وتدفع إلى قول الشعر، لأن الشعر -كما يرون- نكِد لا يقوى إلا بالشر، فإذا ادخلته في باب الخير لان.

3/ طبيعة الدعوة الإسلامية التي تعتمد على المجادلة والمنطق والإقناع، لم يكن يناسبها الشعر.

4/ إن بعض الشعراء شغلوا عن الشعر بالجهاد.

5/ حملة القرآن الكريم على الشعراء وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 224-227].

6/ إن النبي ﷺ لم يهيء لعامة الشعراء مكانا رحيبا في كنفه، لِما كانت عليه في شعرهم من مذاهب لا يقرها الدين، فكفَّ بعضهم عن قول الشعر.

غير أنّ بعض الدارسين نقضوا الأقوال السابقة، وذهبوا إلى أن تيار الشعر ظل متدفقا في عصر النبوة والخلفاء الراشدين، وأنه تهيأت له كثير من العوامل التي استدعت القول فيه، والإكثار منه، ومما قالوه :

1/ إن القرآن الكريم لم يحمل على الشعراء بعامة ، وإنما على الشعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ﷺ، ويثبطون دعوته، ولم يوجهوا شعرهم لخدمة الإسلام.

2/ لقد اتخذ الرسول ﷺ سلاحا ماضيا ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء دعوته، وقد كان عليه السلام يستمع إلى الشعراء ويثيبهم. مدحه عباس بن مرداس فكساه حلة، ومدحه كعب بن زهير فكساه بردة، واعتماده على حسان بن ثابت من الأخبار المعروفة المشهورة، ومما قاله له: "والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام". وكان أبو بكر الصديق يسأل عن الشعر ويتمثل به، وكان عمر عالما ذواقة له.

3/ وحجة انشغال المسلمين بالجهاد مردودة، فالجهاد في سبيل الله والفتوحات الإسلامية من اكثر الروافد التي أمدت الشعر الإسلامي بالمعاني الجديدة، والأفكار البديعة، والأغراض الطريفة.

4/ إن من يقرأ الأدب والتاريخ والسير يجد أنها تمتلئ بالأشعار التي قيلت في صدر الإسلام.

ثانيا: أثر الإسلام في النثر

كانت عناية الإسلام بالنثر أكبر من عنايته بالشعر، وتأثيره في النثر أعمق. وهذا أمرٌ بديهي، إذ كان النثر أداة الدعوة الأولى، وأداة الإسلام الأولى للتعليم وتوجيه شؤون الجماعة الإسلامية، حين صار للعرب دولة منظمة مهيبة الجانب، ثم أصبح النثر فيما بعد أداة الإسلام في التأليف والتدوين العلمي، وفي نشأة شتى العلوم الإسلامية، والعلوم العربية المساندة لها، وعرف تاريخ الفكر الإنساني تراثًا معرفيًا عظيمًا للمسلمين.

حصر علماء اللغة والأدب والنقاد مصادر الأدب في عصر صدر الإسلامي ثلاثة مصادر رئيسية: هي القرآن، والحديث، والأدب الجاهلي، فقد استلهم الأدب الإسلامي أفكاره وأساليبه من هذه المصادر الثلاثة، وزاد بعضهم التأثر بآداب الفرس والرومان. واقتفى الشعراء أثر هذه المصادر.

ﷺ المحاضرة الحادية عشرة: أغراض الشعر في صدر الإسلام

انصرف العرب في هذا العصر إلى الدعوة الإسلامية مبشرين بتعاليمها، السمحة شارحين تعاليم القرآن الكريم فشغلوا بالأحاديث الدينية وتركز اهتمامهم على نصرة العقيدة وبذلك ابتعدوا عن الشعر كما قال عمر بن الخطاب: (كان الشعر علم قوم لم يكن علم أصلح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب -أي الشعر- بالجهاد وغزوا فارس والروم وسهت –أي العرب- عن الشعر وروايته)

وبذلك انصرف الناس عن القريض والنظم إلا ان هناك نفرا من الشعراء الذين عاشوا في الجاهلية وفي صدر الإسلام وسموا بالمخضرمين والذين امتدحوا الرسول والإسلام وهجوا الأعداء والكفار كما فعل حسان بن ثابت الأنصاري وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير الذي قال في الرسول ﷺ:

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

أما الشعراء من أعداء الله فقد اشتهر منهم ثلاثة هجوا النبي ﷺ وشعراءه وهم: عبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحرث وضرار بن الخطاب ولكن لم يصلنا من شعرهم شيء. ولقد خبا الشعر في هذه الفترة واستمر فتوره حتى نهاية حكم الخلفاء الراشدين بيد ان خصائصه الفنية ظلت كما كانت في العصر الجاهلي.

شعر الدعوة الإسلامية:

ومن المشاهد التي أثارت استغرابهم منظر الفيلة، وقد وجد الشعراء في الحديث عنها مجالاً رحباً، فتحدّثوا عن صورها الغريبة وطرق استخدامها في القتال، ومقاومتهم لها من ذلك قول القعقاع بن عمرو مشبّهاً إياها بالبيوت في الضخامة:

فإن كنتُ قاتلت العدو فَلَلتـه
لألقى في الحروب الدواهيا
فيولاً أراها كالبيوتِ مُغيرةً
مل أعيناً لها وَمَاقِيا

وقد تمخض عن الفتوح الإسلامية نمط من الشعر الوجداني الذي يعبر عن حنين المجاهدين إلى أهليهم وديارهم، ويصوّر أشواقهم إلى أزواجهم وأبنائهم على نحو ما نرى في الأبيات التالية التي قالها أحد الشعراء المجاهدين يحنّ إلى نجد، ويتشوّق إليها، ويتطلّع إلى خيامها: أكرّر طرفي نحو نجد وإنّني برغمي وإن لم يدرك الطرف أنظرُ حنيناً إلى أرض كأن ترابها إذا أمطرت عود ومسك وعنبر بلاد كان الأقحوان بروضه ونور الأقاحي وشي برد أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي خيام بنجدٍ دونها الطرف يَقْصرُ

شعر الدعوة الإسلامية

اضطلع الشعر في عصر النبوة والخلفاء الراشدين بدور كبير في الانتصار للدعوة الإسلامية وتأييدها ، وقد حثّ الرسول × شعراء الإسلام على أن ينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم، فقد رُوي عنه أنه قال: الا رجل يردُّ عنا؟ قالوا يا رسول الله حسان بن ثابت :قال أَهْجيهم فو الله لهجاؤك أشدّ عليهم من وقع السّهام وخاطب النبي عليه السلام شعراء الإسلام اهجوا بالشعر ، إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله ، والذي نفس محمد بيده كأنما تنضحونهم بالنبل وقد تعدّدت الموضوعات التي تناولها الشعراء في تأييدهم للدعوة الإسلامية ومن أهمها: دعوة النّاس إلى الدخول في الإسلام، ومدح الرسول الكريم، والحضّ على الجهاد وتهديد كفار ،قريش ورثاء من استشهد من المُسلمين . فقد تحدث كعب بن زهير عن رحلة قام بها ليدعو قومه إلى الإسلام ويحثهم على الدخول فيه، وذلك إذ يقول:

رَحَلـــــــتُ إِلـــــــى قَـــــــومي لِأَدعـــــــو جُلَّهُـــــــم
إِلـــــــى أَمـــــــرِ حَـــــــزمٍ أَحكَمتُـــــــهُ الجَوامِـــــــعُ
سَـــــــأَدعوهُمُ جُهـــــــدي إِلـــــــى البِـــــــرِّ وَالتُقـــــــى
وَأَمـــــــرِ العُـــــــلا مـــــــا شـــــــايَعَتني الأَصـــــــابِعُ
فَكونـــــــوا جَميعـــــــاً مـــــــا اِســـــــتَطَعتُم فَإِنَّـــــــهُ
سيَلبَسُـــــــكُم ثَـــــــوبٌ مِـــــــنَ اللَـــــــهِ واسِـــــــعُ

رحلت إلى قومي لأدعو جلهم ساد عوهم جهدي إلى البر والتقى فكونوا جميعاً ما استطعتُم، فإنه إلى أمر حزم أحكمته الجوامع وأمر العلا ما شايعتني الأصابعُ سَيَكُمْ ثوبٌ منَ اللَّهِ واسع

وعندما ارتدت كندة ثبت الشّاعرُ ثور بن مالك على دينه، وحاول أن يثني قومه عن الرقة فلم يفلح؛ وفي ذلك يقول:

وقلـــــــــت تحلـــــــــوا بـــــــــدين الرســـــــــول
فقـــــــــالوا التـــــــــراب ســـــــــفاها بفيكـــــــــا
فأصـــــــــبحت أبكـــــــــي علـــــــــى هلكهـــــــــم
ولـــــــــم أك فيمـــــــــا أتـــــــــوه شـــــــــريكا

وأكثر الشعراء من مدح الرسول الكريم، وذكر بطولته، وما يتحلى من عظيم الصفات. ن ذلك الأبيات التالية التي قالها كعب بن زهير يمدح الرسول وأصحابه المهاجرين ويصفه وما جاء به من الهدى بالنور، ويصوّره سيفاً من سيوف الله؛ ويثني على المهاجرين الذين آمنوا بالله وهاجروا من مكة امتثالاً لأمر الرسول عليه السلام:

إنّ الرّســـــــــول لنـــــــــور يستضـــــــــاء بـــــــــه
مهنـــــــــد مـــــــــن ســـــــــيوف الله مســـــــــلول
فـــــــي عُصْـــــــبةٍ مـــــــن قـــــــريش قـــــــال قـــــــائلهم
بـــــــبَطْن مكـــــــة لمـــــــا أســـــــلموا زولـــــــوا
زالـــــــوا فمـــــــا زالَ أنكـــــــاسٌ ولا كُشُـــــــفٌ
عنْـــــــدَ اللّقـــــــاءِ ولا ميـــــــل معازيـــــــل

ويرسم مالك بن عوف صورة زاهية لشخصيّة الرسول وما انطوت عليه من جميل الخصال وكريم السجايا التي تفرد بها ، فأثنى على كرمه الفياض، وبصيرته النافذة وشجاعته الفائقة، وحرصه على جنوده ورحمته بهم واستبساله في الدفاع عنهم:

مـــــــا إن رأيـــــــتُ ولا سَـــــــمعتُ بمثلِـــــــهِ
فـــــــي النّـــــــاس كلّهـــــــمُ بمثـــــــل محمّـــــــد
أوفـــــــى وأعطـــــــى للجزيـــــــل إذا اجتـــــــدي
ومتـــــى تشـــــايخ تَشـــــأ يخبـــــرُكَ عمّـــــا فـــــي غـــــدِ
وإذا الكتيبـــــــــةُ عَـــــــــرَّدَتْ أنيابهـــــــــا
بالسَّـــــــمْهريّ وضَـــــــرْب كـــــــلّ مهنّـــــــدِ
فكأنّـــــــه ليـــــــث علـــــــى أشـــــــباله
وســـــــط الهبـــــــاءة خـــــــادِرٌ فـــــــي مرْصَـــــــدِ

وأسهم الشعراء في تحريض المؤمنين على الجهاد واستنهاض هممهم وإلهاب جذوة الحماسة في نفوسهم. فعندما تضعضعت قوّة المسلمين يوم انتدب بجير بن زهير بن أبي سلمى

نفسه ليحثّ النّاس على الصبر والثبات مذكراً إياهم ببيعتهم للرسول الكريم، وتأييد الله لهم، يقول:

أيـــــــن الـــــــذين هُـــــمُ أجـــــابوا رَبَّهـــــمْ
يـــــــوم العُـــــــريض وبيعـــــــة الرّضـــــــوانِ
واللَّـــــــــهُ أكرمنـــــــــا وأظهـــــــرَ ديننـــــــا
وأعزّنـــــــــا بعبـــــــــادةِ الـــــــــرّحمنِ
والله أهلكهـــــــــم وفـــــــــرّقَ جَمْعَهـــــــــم
وأذلهـــــــــم بعبـــــــــادةِ الشَّـــــــــيطانِ

شعر الفتوح الإسلامية:

واكبَ الشّعرُ العربي حركة الفتوح الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين، فقد الشعراء بهذه الفتوح، **وافتخروا بالانتصارات العظيمة على الفرس والروم**، وصوّروا شجاعة الأبطال الفاتحين وتضحياتهم). وقد حظيت فتوح فارس ولا سيما معركة القادسية، بحظ وافر من الشعر، إذ شهدها عدد من الشعراء المجاهدين الذين كان لهم بلاء حسن في قتال الفُرس؛ ومن هؤلاء عمرو بن مَعْدِ يْكرب الزبيدي الذي شهد القادسية، وممّا قاله فيها يفخر بشجاعة المسلمين وبطولتهم:

والقادســـــــيّةُ حـــــــين زاحـــــــم رُسْـــــــتُم
كنّـــــــا الحُمـــــــاةَ بهـــــــنَّ كالأشْـــــــطان
الضّـــــــاربين بكـــــــل أبـــــــيضَ مِخْـــــــدَم
والطـــــــاعنين مجـــــــامع الأضـــــــغانِ

وَمِمّن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح، وهو الذي قتل رُستم، وقد قال في ذلك قصيدة وصف فيها الخيول العربية التي شاركت في المعركة، وتغنى ببطولة المجاهدين فى المعارك، وافتخر بِصَرْعِه لقائد الفرس. ومما ورد في القصيدة:

جليـــــــتُ الخَيْـــــــلَ مـــــــن صَـــــــنْعَاءَ تُـــــــرْدِي
بكـــــــل مُـــــــدَجّج كالليـــــــثِ سَـــــــامِ
وَجِـــــــئْنَ القادســـــــية بَعْـــــــدَ شَـــــــهْرٍ
مـــــــسَوَّمَةً دوابرهـــــــا دوامـــــــي

فَنَاهَضْـــــــنا هنالـــــــك جَمْـــــــعَ كســـــــرى
وأبنـــــــــــاءَ المرازبـــــــــــةِ الكِـــــــــــرامِ
فلمـــــــا أن رأيـــــــتُ الخيـــــــل جالـــــــت
قَصَـــــــدْتُ لموقـــــــف الملـــــــكِ الهمـــــــام.
لأضـــــــرب رأســـــــه فهـــــــوى صـــــــريعاً
بســـــــيف لا أفـــــــل ولا كَهَـــــــامٍ
وقـــــــد أبلـــــــى الإلـــــــه هنـــــــاك خيـــــــرا
وفعـــــــل الخيـــــــر عنـــــــد الله نـــــــام

وأبرز الشعراء قوة المسلمين، وهدّدوا الأعداء بها، وقدموها في إطار يبعث على الثّقة. فهذا كعب بن مالك يتحدّث عن استجابة المسلمين للأمر الإلهي، بأن يعدوا للأعداء ما استطاعوا من قوّة ومن رباط الخيل ليرهبوهم بها يقول:

ونُعـــــــــدّ للأعـــــــــداء كُـــــــــلَّ مقلَّـــــــــص
وَرْدٍ ومحجـــــــــــول القـــــــــــوائم أبْلَـــــــــــقِ
أمـــــــــر الإلـــــــــهُ بِرَبْطِهـــــــــا لعـــــــــدوّه
فـــــــي الحَـــــــرْبِ، إنّ اللّـــــــهَ خيـــــــرُ مُوَفِّـــــــق

وعندما استشعر كعب بن زهير قوة المسلمين في المدينة المنوّرة أخذ يهدّد كفّار مكة، ويتوعدهم، ويصوّر لهم أنّ فتح مكة بات وشيكاً. يقول:

ورثى الشعراء الشهداء الذين سقطوا في حومات الوغى مجاهدين في سبيل الله ، واتخذوا من ذلك مناسبة لحثّ المسلمين على الجهاد، فقد رثى حسان بن ثابت شهداء بدر، فصوّر الرّوح الجهادية العالية التي كانوا يتحلون بها، وأثنى على بلائهم في القتال، وإقدامهم على الموت، وتسابقهم إلى نيل الشهادة يقول:

وَفَـــــــوْا يَـــــــوْم بـــــــدر للرســـــــول وَفَـــــــوْقَهُمْ
ظـــــــلال المنايـــــــا والســـــــيوف اللوامـــــــع
دعـــــــا فاجـــــــابوه بحـــــــث وكلّهـــــــم
مطيـــــــع لـــــــه فـــــــي كـــــــلّ أمـــــــرٍ وســـــــامعُ
إذا لـــــــم يكـــــــن إلا النبيـــــــين شَـــــــافِعُ

ولا يقطـــــــــــــع الأجـــــــــــــالَ إلَّا المُصـــــــــــــارعُ

فمَـــــــا بَـــــــدَّلُوا حتـــــــى توافـــــــوا جماعـــــــةً

لأنهـــــــم يرجـــــــون منـــــــه شـــــــفاعة

ولم يقتصر الشعراء الذين ساحوا في الأرض مع الجيوش المجاهدة على وصف البطولات والمعارك، وإنما **وصفوا مشاهداتهم في البلاد المفتوحة**، وما رأوه فيها من مظاهر جديدة لم يكونوا يألفونها في الجزيرة العربيّة؛ مثل جبال الثلج والأنهار وسفائن البحار وبعض الحيوانات والقصور الشاهقة. فعندما وصل المسلمون الحيرة من أرض العراق، ورأوا قصورها العالية لم يتمالك الشاعر عاصم بن عمرو التميمي نفسه، وانطلق قائلاً:

صَـــــــــبَحْنا الحيـــــــــرة الروحـــــــــاء خـــــــــيلاً

ورجـــــــــلاً فـــــــــوق أثبـــــــــاج الركـــــــــاب

حَضَـــــــــرْنا فـــــــــي نواحيهـــــــــا قصـــــــــوراً

مشـــــــــرعةً كأضـــــــــراس الكـــــــــلاب

ومن المشاهد التي أثارت استغرابهم منظر الفيلة، وقد وجد الشعراء في الحديث عنها مجالاً رحباً، فتحدّثوا عن صورها الغريبة وطرق استخدامها في القتال، ومقاومتهم لها من ذلك قول القعقاع بن عمر و مشبّهاً إياها بالبيوت في الضخامة:

فـــــــإن كنـــــــتُ قاتلـــــــت العـــــــدو فَلَلتـــــــه

فـــــــإني لألقـــــــى فـــــــي الحـــــــروب الـــــــدواهيا

فيـــــــولاً أراهـــــــا كـــــــالبيوتِ مُغيـــــــرةً

أســـــــمل أعيانـــــــاً لهـــــــا وَمَاقِيـــــــا

وقد تمخض عن الفتوح الإسلامية نمط من **الشعر الوجداني الذي يعبر عن حنين المجاهدين إلى أهليهم وديارهم**، ويصوّر أشواقهم إلى أزواجهم وأبنائهم على نحو ما نرى في الأبيات التالية التي قالها أحد الشعراء المجاهدين يحنّ إلى نجد، ويتشوّق إليها، ويتطلّع إلى خيامها:

أكـــــــرّر طرفـــــــي نحـــــــو نجـــــــد وإنّنـــــــي

برغمـــــــي وإن لـــــــم يـــــــدرك الطـــــــرف

أنظـــــــرُ حنينـــــــاً إلـــــــى أرض كـــــــأن ترابهـــــــا

إذا أمطـــــــرت عـــــــود ومســـــــك وعنبـــــــر

بـــــــــــلاد كـــــــــــان الأقحـــــــــــوان بروضـــــــــــه

ونـــــــــــور الأقـــــــــــاحي وشـــــــــــي بـــــــــــرد محيـــــــــــر

أحـــــــــــن إلـــــــــــى أرض الحجـــــــــــازوحـــــــــــاجتي

خيـــــــــــام بنجـــــــــــدٍ دونهـــــــــــا الطـــــــــــرف يَقْصـــــــــــرُ

المحاضرة الثانية عشرة: شعراء إسلاميون (كعب بن زهير، الخنساء)

أولا كعب بن زهير:

حسانُ بنُ ثابت

المتوفى سنة ٥٤ هـ

نشأته وحياته

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصارى ، ولد بالمدينة ونشأ فى الجاهلية ، وعاش على الشعر ، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ويتقبل صلاتهم . ولكنه بالغ فى مدح آل جفنة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم فأغدقوا عليه العطايا ، وملأوا يديه بالنعم ، ولم ينكروه بعد إسلامه وتنصرهم ، فجاءته رسلهم تترى بالهدايا من القسطنطينية . ولما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنصح عنه . وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه : مايمنعُ الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : أنا لها ؟ وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال : والله مايسرنى به مِقْوَلٌ مابين بُصرى وصنعاء ! والله لو وضعته على صخر لفَلقه ، أو على شَعر لحلقه ! فقال له النبى : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : « أسُلك منهم كما تسل الشعرة من العجين » . فقال : اهجُهم ومعك روح القدس. فهجاهم فألمهم وأبكمهم ووقعت كلماتُه منهم موقع السهام فى غسق الظلام؛ فاشتهر بذلك ذكره ، وارتفع قدره ، وعاش ماعاش موفور الكرامة مَكْفىَّ الحاجة من بيت المال ، حتى توفى سنة ٥٤ للهجرة بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة ، وقد كف بصره فى أعقاب أيامه .

شعره

كان حسان فى الجاهلية شاعر أهل المُدن ، وفى البعثة شاعر النبوة ، وفى الإسلام شاعر اليمانية . وكان يغلب فى شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء،

وكلها أغراض تقتضى اللفظ الفخم والأسلوب القوى ، فبدا عليه أثر من الحوشية والوحشية ذهب بمجىء الإسلام . ثم سكنت عوامل الشعر فى نفسه بسماحة الدين وموت الأحقاد وتقدم السن ، فما كانت تتحرك إلا ذياداً عن النبى ودفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين . ولكن كثيراً من شعره فى هذا الطور كان خشيباً ، فكثر به السقط ، وقلت فيه الجزالة ، وغلبت عليه السهولة ، فرأى الأصمعى أن شعره لم يقوَ إلا فى الشر ، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف . وهو فى شعره يضارع ابن كلثوم فى الفخر بقومه والمباهاة بنفسه ، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب .

نموذج من شعره

قال فى الهجاء :

ألا أبلغ أنا سفيان عنى ... مغلغلةً فقد برَح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوتَ محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكفء ؟ ... فشركما لخيركما الفداء
لنا فى كل يوم من مَعدٍّ ... سبابٌ أو قتال أو هجاء
لسانى صارمٌ لا عيب فيه ... وبحرى لا تكدره الدلاء
فإنَّ أبى ووالدتى وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

وأقبل على الرسول وفد من تميم يفاخره وعليهم الزبرقان بن بدر ، فلما أنشدوه أمر حساناً أن يجيبهم فقال :

إن الذوائب من فِهرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تُتَّبع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير مُحْدَثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البِدَع
لايرفع الناسُ ما أوهت أكفُّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهمُ ... فكل سبق لأدنى سبقهم تَبَع
أعفة ذُكرت فى الوحى عفتُهم ... لايطبَعون ولايُزْرى بهم طمع
لايفخرون إذا نالوا عدوهمُ ... وإن أصيبوا فلا خوْر ولا جزع

وقال يمدح جَبَلَة بن الأيهم :

لله درُّ عصابة نادمتهم ... يوماً بِجِلّقَ فى الزمان الأول
يمشون فى الحُلل المضاعف نسجُها ... مشى الجمال إلى الجمال البُزَّل
والخالطون فقيرهم بغنيهم ... والمشفقون على الضعيف المُرْمل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يَسْقون مَن ورد البريصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفّق بالرحيق السلسل
يَسْقون درياق الرحيق ولم تكن ... تُدعى ولائدهم لنقف الحنظل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شُمُّ الأنوف من الطراز الأول
فلبثت أزماناً طوالاً فيهمُ ... ثم ادَّرَكتُ كأننى لم أفعل

ومن قوله :

وإن امرأ يُمسى ويصبحُ سالما ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال أيضاً :

رُبَّ علم أضاعه عدم المـا ... ل وجهل غطى عليه النعيم
ما أبالى أنبَّ بالحزن تيسٌ ... أم لحانى بظهر غيبٍ لئيم

ثانيا الخنساء:

الخنساء ولدت تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد المعروفة بالخنساء في جزيرة العرب عام 575م، وهي إحدى نساء قبيلة مضر، ومن أهل نجد، وقد أمضت أكثر حياتها في العصر الجاهليّ، ويشار إلى كونها أشهر شعراء العرب على الإطلاق، ويعود السبب في تسميتها بالخنساء إلى قصر أنفها وارتفاع أرنبيته، ويُذكر أنَّها نشأت في بيت عزّ مع أبيها وأخويها صخر ومعاوية، وأسلمت الخنساء مع قبيلتها، وذهبت معهم إلى المدينة المنورة؛ لملاقاة الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقد كان رسول الله يستنشدها ويُعجب كثيراً بأشعارها؛ إذ كانت تُنشد الأشعار، وهو يقول لها: (هيه يا خنساء). وكانت وفاتها في أوائل خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه عام 24هـ، والذي يوافق بالميلادي 664م.

شاعرية الخنساء

تُعدُّ الخنساء واحدةً من الشعراء المخضرمين، ومن أشهر شعراء الرثاء؛ إذ غلب على شعرها البكاء، والتفجّع، والمدح، والتكرار، والنظم على وتيرة من الحزن، والبكاء، وذرف الدموع، ولقد نبغت شاعريتها بعد مقتل أخويها، حيث أثّر مقتل شقيقيها معاوية وصخر في شاعريتها، وزاد في شهرتها الشعرية؛ وقد طال بها هذا الحزن إلى الدخول بحداد طويل جداً، حيث استمرّت في ارتداء ملابس الحداد كدليل على إخلاصها لأخويها، وقالت في رثاء صخر:

يُـــــــذَكّرُني طُلُـــــــوعُ الشـــــــمسِ صَـــــــخراً
وأذكـــــــرُهُ لكـــــــلّ غُـــــــروبِ شَـــــــمْسِ
ولَـــــــوْلا كَثـــــــرَةُ البـــــــاكينَ حَـــــــوْلي
عـــــــلى اخـــــــوانهمْ لقتلـــــــتُ نفسي

كما امتازت قصائدها الشعرية بقصرها، وقوة الإحساس، واليأس بخسارة الحياة التي لا يُمكن استردادها، وقد أشار إليها بشار بقوله: تلك التي غلبت الرجال، وعليه فتركت الخنساء وراءها ديوان شعر، وفيه ما بقي محفوظاً من شعرها، ومما قالته:

إنّ الزّمـــــــانَ ومـــــــا يَفنـــــــى لـــــــه عَجَـــــــبٌ
أبقـــــــي لنـــــــا ذنبـــــــاً واستوصـــــــلَ الـــــــرَّاسُ
أبقـــــــي لنـــــــا كـــــــلَّ مجهـــــــولٍ وفجعنـــــــا
بالحـــــــالِمِينَ فَهُـــــــمْ هـــــــامٌ وأرْمـــــــاسُ
انَّ الجديـــــــدينِ في طـــــــولِ اخـــــــتلافهما
لا يَفْسُـــــــدانِ ولكِـــــــنْ يفسُـــــــدُ النّـــــــاسُ

من أهم ملامح شخصية الخنساء تميّزت شخصية الخنساء بالعديد من الملامح والصفات، وهي على النحو الآتي: قوة الشخصية، حيث تميّزت الخنساء برأيها المتحرّر، وقوة شخصيتها، ويعود السبب في ذلك إلى نشأتها في رحاب بيت عزّ وجاه، حيث نظمت قصائد شعرية في التفاخر بكرم أهلها وجودهم، وخير دليل على قوة شخصيتها هو رفضها الزواج من دريد بن الصمة؛ وذلك لأنَّها فضّلت الزواج بأحد أبناء قومها. البلاغة وحسن المنطق والبيان. الشجاعة وقوة التضحية، والتي تظهر في مواقفها بيوم القادسية، فعندما استشهد أولادها قالت: (الحمد لله الذي شرّفني باستشهادهم).

.

المحاضرة الثالثة عشر: فنون النثر في صدر الإسلام

ازدهرت **الخطابة** في صدر الإسلام ازدهارًا عظيمًا، إذ صارت الأداة القولية الفعالة في الدَّعوة، وفي تنظيم شؤون الدولة، وفي توجيه الجماعة الإسلامية. بل صارت الخطابة مرتبطة بالشعائر الإسلامية، وتمثّل ذلك في خطبة الجمعة ويوم عرفة والعيدين وصلاة الاستسقاء والخروج إلى الجهاد. وكثيرًا ما نطالع في كتب السيرة والسنة، صعود النبي ³ إلى المنبر يخاطب المسلمين في أمور شتى: أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر. وتُعدّ خطبة الوداع أشهر خطبه ³، وكذلك كان الخلفاء الراشدون وولاتهم من بعدهم.

صارت **الخطابة** .في العصر الإسلامي. أداة الجماعات الممثلة لشتى القبائل عند وفادتها على النبي، أو الخلفاء الراشدين من بعده. وكانت الخطبة الإسلامية تبدأ باسم الله ثم بحمده والصلاة والسلام على نبيه. ويُستشهد فيها بالقرآن الكريم، وتقوم على المعاني الإسلامية. وقد سجلت لنا المصادر الكثير من نصوص الخطابة وأسماء الخطباء، بما يعكس هذه النهضة الكبيرة التي أحدثها الإسلام في هذا الفن، فتفوّق العرب على أقرانهم من اليونان والرومان .وكان للأحداث دورها في تنشيط الخطابة، فضلاً عن الجهاد، واستعداد العرب الفطري لهذا الفن الذي عرفوا به، منذ العصر الجاهلي، كما عرفوا بالشعر.

نشط في هذا العصر فن آخر، هو **فن الرسالة** حيث اضطلع بما لم تضطلع به الخطبة والقصيدة، وتمثَّل ذلك في رسائل النبي ﷺ، وأولها يتمثل في الكتاب الذي كتبه النبي ³ حين نزل المدينة، يخاطب فيه المهاجرين والأنصار، ويحدد المعالم الأساسية للجماعة المسلمة في وحدة عقيدتها وزوال الفوارق والنعرات القبلية. كما بعث النبي ﷺ برسائل شتى إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ومن أبرزها رسالته إلى هرقل ملك الروم، وإلى المقوقس عظيم مصر.

ويلحق بالرسائل **نصوص المعاهدات**، ومنها تلك المعاهدة المكتوبة بين النبي ﷺ وبين قريش عام الحديبية، وفيها اتفاق على هدنة مدتها عشر سنوات "وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل». ومن هذه المعاهدات معاهدته مع أهل نجران، يبين لهم فيها ما عليهم من خراج ثم يقول: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير."

وفي هذا المقام يُشار إلى حقيقتين مهمتين: الأولى، كثرة ما ورد إلينا من العصر النبوي من نصوص خطابية ورسائل ومعاهدات، وقد نالت هذه النصوص عناية كبيرة من رجال

الحديث والمؤرخين، حتى صارت متواترة مشهورة في كتب السيرة والأحاديث والتاريخ، ولها أسانيدها ورواتها. والحقيقة الثانية، أن قدرًا كبيرًا من تلك النصوص قد أصبح معروفًا واستفاضت به المصادر، لأنها اعتُبرت وثائق تاريخية، ومصادر دينية، ونصوصًا أدبية رفيعة المستوى، تعكس هذا التحوّل الكبير الذي أحدثه الإسلام في النثر على وجه الخصوص.

والأمر الذي لا شك فيه أنه كان لانتشار الكتابة منذ عصر النبوّة أكبر الأثر في حفظ هذه النصوص النثرية وتدوينها، بل والثقة بها. ولا شك أيضًا في أن الإسلام قد نشط في محو الأمية، وحث المسلمين على تعلُّم الكتابة والقراءة ونشرها بين الأفراد والجماعات، حتى تمكنوا من تدوين القرآن الكريم على نحو بلغ من الدقة ما لم يبلغه كتاب سماوي، كما شهدت السنّة النبوية بدايات التدوين الدقيق الموثق منذ العهد النبوي. وكان ذلك نواةً لنشأة حركة التأليف والترجمة فيما بعد.

نماذج من النصوص النثرية في صدر الإسلام

أولا الرسائل:

كتاب الرسول إلى هرقل عظيم الروم: عن ابن عباس رضي الله عنهما-، أن النبي صلى الله عليه وسلم- كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه دحية الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فإذا فيه) :بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت عليك إثم الأريسيّين، "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ".

كتاب الرسول إلى المقوقس: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ")

كتاب الرسول إلى النجاشي: بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ، مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ إِلَى النّجَاشِيّ عَظِيمِ الْحَبَشَةِ؛ أَسْلِمْ أَنْتَ، فَإِنّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللّهَ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ، وَأَشْهَدُ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطّيّبَةِ الْحَصِينَةِ؛ فَحَمَلَتْ بِعِيسَى، فَخَلَقَهُ اللّهُ مِنْ رُوحِهِ، وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ) [وَإِنّي أَدْعُوكَ إِلَى اللّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالّذِي جَاءَنِي؛ فَإِنّي

رَسُولُ اللّهِ وَإِنّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللّهِ -عَزّ وَجَلّ-، وَقَدْ بَلّغْتُ وَنَصَحْت فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، وَالسّلَامُ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى).

كتاب الرسول إلى كسرى ملك الفرس: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإن عليك إثم المجوس)

طريقة كتابة الرسول لرسائل الملوك: بعد أن استعرضنا جزءًا من رسائل النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الملوك والأمراء؛ لنتأمل قليلاً في حكمة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأسلوبه في إرسال هذه الرسائل، وكيف أنه -صلى الله عليه وسلم- أرسل الرسائل وهو يعلم أن من الممكن رفضها، وتوقع جميع ردود أفعال هؤلاء الملوك؛ لكن هذا لم يمنعه من أن يقوم بكل ما يستطيع فعله، حتى ينشر رسالته حتى ولو لم يستجب أحد .لأن هدفه -صلى الله عليه وسلم- هو هداية أكبر قدر ممكن من الناس، وفي هذا أيضا تعليم واضح للأمة الإسلامية ورسالة واضحة لها، أننا نحن كمسلمين بحاجة إلى الصبر واللين، واستعمال الأسلوب الحسن، ومحاورة الناس بالحسنى، حتى وإن لم يستجيبوا لنا؛ لكن من الوارد جداً أن يبقى كلامنا في أذهانهم، وبعد مدة من الزمن يهديهم الله -سبحانه وتعالى- بهدايته ونكن نحن السبب في هذا .

ثانيا الخطب:

خطبة في الآخرة لعلي بن أبي طالب: "ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، لا وإنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدي يجر به الضلال، ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل".

خطبة الإمام علي في الشكوى من أنصاره: "أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤكم، كلامكم يوهي الصمّ الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم، تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد، ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعاليل بأضاليل، سألتموني التأخير دفاع ذي الدّين المطول (..) هيهات لا يمنع الضيم الذليل، ولا يدرك الحقّ إلا بالجدّ، أيّ دار بعد داركم تمنعون؟ أم أيّ إمام بعدي تقاتلون، المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب، أصبحت والله لا أصدّق قولكم، ولا أطمع في نصركم، فرّق الله بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خير لي منكم، لوددت أن لي بكل عشرة منكم رجلا من بني فراس بن غنم، صرف الدينار بالدرهم".

المحاضرة الرابعة عشر: كتاب إسلاميون (عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب)

وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحى ، فكان يقتضب ويتجوز ويشتق ، وينهج المذاهب البيانية ، ويرتجل الأوضاع التركيبية ، ويضع الألفاظ الاصطلاحية ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسرًّا من أسرار اللسان ، يزيد فى ميراث اللغة ، ويرفع من قدر الأدب . كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حَتْف أنفه[1] . الآن حمى الوطيس . هُدنة على دَخَن . ياخيل الله اركبى . لا ينتطح فيها عنزان . وقوله لحادى النساء رويدك ! رفقاً بالقوارير . وقوله فى يوم بدر : هذا يوم له ما بعده . ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكتاب .

عمر بن الخطاب

نشأته وحياته

ولد أبو حفص عمر الفاروق بن الخطاب القرشى بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة ، ونشأ نشأة الفتيان من قريش ، فرعى الماشية صغيراً ، ومارس التجارة والحرب كبيراً ، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه ، فتعلم الكتابة ، وتقلب فى التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً ، والشام والعراق شمالا حتى فخم أمره وعظم قدره . واشتهر فى الناس ببلاغة اللسان ، وثبات الجنان ، وقوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، فجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب فى السلم والحرب . ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه . ولجَّ فى الخصومة والإنكار على متَّبعيه ، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين رجلا وثلاث عشرة

(١) روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ماسمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله (ص) . وسمعته يقول : مات حتف أنفه وماسمعتها من هزيد قبله : فورودها إذن فى لامية السموءل الشهورة دليل على أن هذه القصيدة منحولة كلها أو بعضها .

امرأة يجتمعون سراً فى دار الأرقم المخزومى ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعز الإسلام به أو بأبى جهل ، فاختاره الله لهذه السعادة ، وشرح صدره للشهادة . وذلك أنه دخل على خَتَنِه يؤنبه ويعذبه على إسلامه . فَلَحَتْه أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه ، فلما قرأها تعظمتْ فى صدره وقال : أمِن هذا فَرَّت قريش ؟ ثم سأل أين الرسول ؟ فقيل له فى دار الأرقم . قال عمر : « فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم . فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا عمر ! قال : وعمر ! افتحوا له فإن أقبل قبلنا منه ، وإن أدبر قتلناه . فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج ، فتشهدت ، فكبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة . قلت يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال بلى ! قلت : ففيم الاختفاء ؟ فخرجنا صفين أنا فى أحدهما وحمزة فى الآخر حتى دخلنا المسجد. فنظرت قريش إلىّ و إلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة . فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق يومئذ » .

كان ذلك وسنه ست وعشرون سنة والأذى قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه ، وعادى فى الله صديقه ونسيبه ، حتى تسلَّل المؤمنون لواذاً إلى المدينة فارِّين من العذاب والفتنة . فلم يشأ عمر الجرىء الباسل أن يخفى هجرته ، وإنما تقلد سيفه وتنكّب قوسه وأتى الكعبةَ ، وأشراف قريش بفنائها ، فطاف وصلى ، ثم أقبل عليهم وقال : « شاهت الوجوه ! من أراد أن تَثْكله أمه و يَيتمَ وَلَدُه وترملْ زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى ! » فلم يتبعه أحد .

ولم يزل مع رسول الله الصاحبَ الأمين يؤيده بسنانه ولسانه ، ويرى له الرأى فيقره القرآن فى بعض الحوادث ، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة ، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة . وقام منه فى خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضى العدل ، حتى حضر الموتُ أبابكر فلم يجد غيره من يعهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص ، وعزمة القوى الشجاع ،

وحنكة الشيخ المجرب ، وحكمة العبقرى الأريب ، ووضع يده على ملكوت كسرى وقيصر ، وطفق وحده وهو فى قلب الصحراء الجديبة يدبره ويسوسه . فيولى الولاة ، ويختار القضاة ، ويُنَصِّب القواد ، ويحرك الأجناد ، ويبعث الأمداد ، ويرسم الخطط ، ويخطط المدن ، ويسن السُّنن ، ويقسم الفيء ويقيم الحدود ، مما ينوء بالحكومات ويلتوى على المجالس . وكل ذلك فى سداد رأى وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم . وكل ذلك وهو يفترش الغبراء ، ويعايش الدهماء ، ويتدثر بالثوب الخَلِق ، ويأتدم بالخل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين فى اليوم . ولا تزال خلافته مثلا من المُثل العليا فى النظام والعدل والأمن . ولكن عمر الذى أرضى الله والناس بعدله وفضله ، لم يُرْضِ عبداً مجوسياً اسمه لؤلؤة ، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاه المغيرة بن شعْبة ، وألا يستكثر عليه درهمين فى اليوم يؤديهما إليه ، وهو نجار ونقاش وحداد ، فاحتقد عليه هذه النصيحة ، ودبّ إليه فى الغلس وهو قائم يصلى بالناس فى الفجر فطعنه بخنجر ذى نصلين طعناتٍ كانت سبب موته . وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ .

صفاته ومواهبه

كان أمير المؤمنين عمر طويلا جسيما ، أبيضَ شديد الحمرة ، أصلعَ أشيبَ ، خفيف شعر العارضين ، أصهب طرف السبال كبيرَه . وكان رفيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هَوادة . وقَلَّ مَن سلم من كبار الصحابة وأشراف القبائل من دِرَّته (عصاه) . وكان مُحْصَدَ الرأى ، مُحْكَمَ الحيلة ، مُوثَّق الحجة ، شديد الورع ، طاهر اليد ، واسع العلم ، حافل الخاطر بالحكمة ، بارع الفقه فى الدين ، إذا ذكرتَ علياً ببلاغة اللسان ذكرته هو ببلاغة العقل . وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فترى منه الفقيه المجتهد ، والإدارى

الحازم والسياسى المحنك ، وكل ذلك دون تلقين ولا وحى ولا اقتداء ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

نموذج من عهوده وخطبه

ذلك عهده إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه القضاء ، وقد اعتبره جمهور من القضاة أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك !

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس، سلامٌ عليك . أما بعد فإن القضاء فريضةٌ محكمة وسنة متبعَة . فافهم إذا أُدلى إليك فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لا نفاذ له . آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأسَ ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرم حلالا . لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها عند الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد ، أو مُجَرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . وإياك والغلق والضجرَ والتأذّىَ بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظِم الله به الأجرَ ويحسن به الذخر ؛ فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟ والسلام .

ومن خطبة له رضى الله عنه :

أيها الناسُ ! إنه أتى علىّ حينٌ وأنا أحْسِبُ أنَّ مَن قرأ القرآنَ إنما يريد اللهَ وما عندَه . ألا وإنهُ قد خُيِّلَ إلىَّ أن أقواماً يقرءون القرآنَ يريدون ماعندَ الناس . ألا فأريدوا الله بقراءتِكم وأريدُوه بأعمالِكم ، فإنما كنَّا نعرِفُكم إذ الوحىُ ينزلُ ، وإذ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بينَ أظْهُرِنا ، فقد رُفع الوحىُ وذهبَ النبىُّ عليه السلام ، فإنما أعرِفكم بما أقولُ لكم : ألاَ فمَن أظْهر لنا خيراً ، ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ، ومن أظهرَ لنا شراً ظَنَنَّا به شراً وأبغضناه عليه .

اقْدَعوا هذه النفوسَ عن شهواتِها فإنها طُلَعة . وإياكم ألاَّ تقدَعوها تنزعُ بكم إلى شرٍّ غاية . إنَّ هذا الحقَّ ثقيلٌ مرىء ، وإنَّ الباطلَ خفيفٌ وبىء ، وتركُ الخطيئةِ خيرٌ من معالجةِ التوبةِ .

على بن أبى طالب

المتوفى سنة ٤٠ هـ

ولد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ، وربى مع الرسول فى بيته تخفيفاً عن أبيه . ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة كان علىٌّ مراهقاً ، فآمن به وشب على حبه ، وتغلغلت أصول الدين فى قلبه ، وخاطر بنفسه فى سبيل الرسول ليلة هجرته ، وأبلى البلاء الحسن فى تأييده ونصرته ، وشهد الغزوات كلها إلا تبوك فقد خلَّفه النبى فيها على أهله . فلما لحق الرسول بربه كان علىٌّ يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والصهر . فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهده من بعده عمر ، وأخطأته الشورى إلى عثمان ، ناوص الجرةَ ثم سالمها ، متحاملا فى كل ذلك على نفسه . وقتل عثمان فبايعه الناس فى الحجاز ، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وقعود علىّ عن القتلة .

وكان ما كان من الفتنة التى حلّت العُقَد ، وأوهنت العُرى ، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتتلتا حيناً من الدهر . ثم قرت السيوف فى الأغماد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين . وائتمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة : معاوية وعمرو بن العاص وعلى . فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجَم ، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً .

أخلاقه وسواهبه

كان علىّ كرم الله وجهه قوى العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالى أوَقع على الموت أم وقع الموت عليه . وكان حُجة فى الفقه ، قُدوةً فى الورع ؛ شديد الشكيمة فى الحق ، قوى الثقة بالنفس ، لا يعرف الهوادة فى الدين ولا المرونة فى الدنيا ؛ فكانت هذه الخلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية فى الخلاف عليه . ولا نعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من على فى المنطق ، ولا أبلّ ريقاً فى الخطابة . كان حكيما تتفجر الحكمة من بيانه ، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه ، وواعظاً ملء السمع والقلب ، ومترسلا بعيد غور الحجة ، ومتكلما يضع لسانه حيث شاء . وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام المنشئين ، وخطبه فى الحث على الجهاد ، ورسائله إلى معاوية ، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا ، وعهده للأشتر النخعى إن صح ذلك ، تعد من معجزات اللسان العربى ، وبدائع العقل البشرى . وما نظن ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه للرسول ومِرَانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة فى سبيله .

نموذج من كلامه

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة . الخطب والأوامر ، والكتب والرسائل ، والحكم والمواعظ . وقد جمعها على هذا النسق الشريفُ الرضى

فى كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق : « يفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرب عليه طِلابها ، فيه حاجة العالم والمتعلم ، وبغية البليغ والزاهد ، ويضىء فى أثنائه من الكلام فى التوحيد والعدل ماهو بلال كل غلة ، وجلاء كل شبهة » والصحيح أن أكثر مافى هذا الكتاب منحول مدخول .

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال : نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أى الأمرين أرشد . فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال : هذا جزاء من ترك العقدة ! أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قوَّمتكم ، وإن آبيتم تداركتكم ، لكانت الوثقى . ولكن بمن وإلى من ؟ أريدأن أُدَاوَى بكم وأنتم دائى ، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلْعها معها . اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدَوِىّ ، وكلت النَّزعَةُ بأشطان الرَّكِىّ ! أبن القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرأُوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فوَلِهوا وَله اللقاح إلى أولادها ، وسلَبوا السيوف أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زَحْفاً زَحْفاً ، وصفًّا صفًّا ، بعض هلك ، وبعض نجا ، لا يُبَشَّرون بالأحياء ، ولا يعزّوْن بالموتى . مُرْه العيون من البكاء ، خُمْص البطون من الصيام ، ذبْل الشفاه من الدعاء ، صفْر الألوان من السهر ، على وجوههم غَبرة الخاشعين . أولئك إخوانى الذاهبون ! فحقّ لنا أن نظمأ إليهم ونَعض الأيدى على فراقهم .

إن الشيطان يُسَنِّى لكم طُرقه ، ويريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة ، ويعطيكم بالجماعة الفرقة . فاصدفوا عن نزغاته ونفَثاته ، واقبلوا النصيحةَ ممن أهداها إليكم واعقِلوها على أنفسكم .

ومن كلام له عليه السلام :

إلا وإن الخطايا خيل شُمْسٌ حُمِل عليها أهلها ، وخُلعت لجمها فتقحَّمت بهم

فى النار . وإن التقوى مطايا ذُلُلٌ حُمِل عليها أهلها ، وأُعطوا أزمَّتها فأوردتهم الجنة . حقٌّ وباطل ، ولكلٍّ أهل . فلئن أمر الباطل فقديماً فعل ، ولئن قلّ الحق فلربما ولعل ، ولقلّما أدبر شيء فأقبل . شُغل مَن الجنة والنار أمامه . ساعٍ سريعٌ نجا ، وطالبٌ بطيء رجا ، ومقصر فى النار هَوى ، اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هى الجادّة ، عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منفذ السنة ، وإليها مصير العاقبة

سحبان وائل

المتوفى سنة ٥٤ هـ

نشأته وحياته

نشأ سحبان بن زفَر بن إياد فى الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة ، ثم دخل فى الإسلام عند ظهوره ، واتصل بمعاوية ، فحسُن موقعه لديه ، واعتمد فى يوم الكلام عليه . وكان سحبان خطيباً غمْر البديهة ، قوى العارضة ، متصرفاً فى فنون الكلام ، كأنما يتلو عن ظهر قلبه . وبه يُضرب المثل فى كل ذلك .

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سحبان فلم يجده فى منزله ، فاقتُضب من حيث كان وأدخل عليه . فقال له معاوية : تكلم . فقال : أحضروا لى عصا . قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه . فضحك معاوية وأمر له بها . فلما جاءته ركلها ولم ترق فى نظره ، فجاءوه بعصاه ، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه وقد بقى فيه شيء . فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون . فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان : لا تقطع علىّ كلامى ! فقال معاوية : الصلاة ! قال